التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الاحراج الى عالم المدينة

للأستاذ محمود الخفيف

— ١٠ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى
نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم

وما كان دوجلاس ليعجز عن أن يبرر عمله أو أن يتلمس له الأوجه القانونية ؛ وإذا عجز دوجلاس عن هـذا فمن يقدر عليه ؟ وإنه لأعلم الناس يومئذ بألاعيب السياسة وأضاليلها ، يصدر فى ذلك عن طبع وعن خبرة ويسدد الرمية فى لباقة وخفة..

ولم يكن اهتمام دوجلاس بتلك المسألة إلا جزءاً من خطته التى رسمها وأراد أن يدلف بها إلى الغاية التى لا يرى دونها غاية ؛ وهو يتحرق شوقاً إليها وينقطع تلهفاً عليها ؛ ولا يفتأ يتبين السبيل المؤدية مهما كانت وعورة مسالكها . والآن تسنح الفرصة فيقتنصها وهو باقتناص الفرص جد خبير . موه على الناس أنه يمكن لسلطان الأمة إذ يرد مسألة العبيد إلى رأى الأمة ، وأنه بذلك يجعل كلمة الشعب هى العليا لا كلمة مجلس الاتحاد . وهو إنما يرمى إلى كسب قلوب أهل الجنوب الذين كانوا من أول الأمر يرون أن يكون لكل ولاية من الحرية ما لا تتلاشى معه شخصيتها فى الاتحاد ، والذين يريدون أن يتخلصوا اليوم من قيود اتفاق ميسورى ...

وإننا لنلمح فيما فعل دوجلاس مهارة الرمية ، كما نلمح فيما يقول حذق السياسى وفكره وسعة حيلته . وكم فى الحياة له من نظراء ممن يأخذون فى سياستهم بآراء أستاذهم الأكبر مكيافلى لا يحيدون عنها ولا يفوتهم شىء من تفاصيلها ودقائقها كأنما عاد أستاذهم نفسه يصرفهم ويوجههم ؛ ولقد برع دوجلاس فى هـذا المضمار فأنه ليجعل الغاية هى عنده كل شىء ولا عبرة بعد ذلك بالوسيلة . وهل كان مثله من السذاجة والبساطة بحيث يتمسك بشرف الوسيلة ويرعى جانب الفضيلة فيؤدى بذلك إلى فوات الفرص وضياع الغاية ؟ كلا إنما كان هو أقوى من أن يتطرق إليه مثل هذا الضعف وأذكى من أن تتطلى عليه مثل هذه البلاهة

ولكن لنكولن لا يعرف المراوغة ؛ ولا يدرى ما الالتواء . فهل له طاقة بمناضلة ذلك القزم الماكر الخاتل ؟ وماذا يجدى على ابراهام طوله والمسألة اليوم مسألة مدافعة ومقارعة ، وليست هى مسألة مكافحة ومصارعة ، كما كان الحال يوم لف ذراعه الطويلة حول أرمسترنج وألقى به على الأرض ؟ ... إن الفرق بين الرجلين هو الفرق بين الطبيعتين ، فهذا ماكر محتال غامض كالبحر ، وذلك بسيط ساذج صريح كوجه السهل ...

خطا دوجلاس خطوته وحمل المجلس على الأخذ برأيه فترك لأهل كنساس أن يختاروا ما تكون عليه ولايتهم إذا ضمت إلى الاتحاد ؛ وجرى الانتخاب التمثيلى فيها على أساس التسليم بمبدأ العبيد أو رفضه ؛ ولو أنه تركت الولاية وشأنها حقا لهان خطب ذلك الانتخاب ولمر دون أن يعقب ضررا ، ولكن كثيرين من أنصار التحرير ومن المنادين بمقاومة انتشار العبيد من أهل الشمال هاجروا الى تلك الولاية ليشتركوا فى الانتخاب ، كما هاجر اليها كذلك عدد عظيم من أهل الجنوب وفى أيديهم أسلحتهم . والتقى الفريقان هناك وبينهما من البغضاء والشحناء ما أوقد نار الحرب وذلك أن أهل الجنوب قد حالوا بقوة السلاح بين خصومهم وبين ما يخوله لهم القانون من التصويت ففاز بالغلبة رجل من أنصار استرقاق العبيد ؛ ولكن أهل الولاية ومناصريهم من أهل الشمال احتشدوا فى مكان آخر واختاروا رجلا من دعاة التحرير ، فقامت لذلك الحرب بين الحزبين ولبثت نارها مشبوبة بينهما زهاء عامين. وفطن الناس إلى أن هذه الحرب انما هى مقدمة الحرب الأهلية الكبرى

انتهت فى تلك الأثناء مدة مجلس الشيوخ ، وانصرف الأعضاء الى البلاد يدعون لأنفسهم من جديد ؛ وكان دوجلاس نائباً عن شيكاغو فى شمال الينوس ، فذهب إلى هناك يدعو لنفسه ، ولكن هاله ما رآه من انصراف الناس عنه ، فهو أينما تولى يجد من الناس نفورا وإعراضا بل إنهم كانوا يجبهونه بالسوء من القول ويظهرون

له ما باتوا يضمرونه من حقد ومقت .

وإنه ليجزع ويستولى عليه الحنق إذ يرى الرايات فى شيكاغو منكسة فى هامات السفن ، ويرى الجدران وعليها عبارات صارخة تلذع قلبه ، ويسمع النواقيس تجلجل فى الجو فى نغمة حزينة كأنما أصبحت المدينة في مأتم شعبي وهو يحاول أن يخطب الناس وهم يرعدون فى وجهه ويسلقونه بألسنة حداد ، حتى يرغموه على الرحيل وقد امتلأ قلبه عليهم غيظا كما امتلأ منهم كمدا .

وينتهى به المسير إلى سبرنجفيلد ولو كان يعلم الغيب لتحول عنها ، ففى تلك المدينة سيأفل نجمه وسيبعد ما بينه وبين غايته . وكانت المدينة يوم وصوله إليها تموج بالناس إذ كانت فى موسم سوق من أكبر أسواق الزراعة . ولقد خيل إليه أن له فى وجود هذا الجمع الحاشد فرصة ...

وكان حزب الهوجز يومئذ فى الشمال فى أخريات خطواته إلى الفناء ؛ بينما كان يولد حزب آخر سيأخذ عما قريب مكانه هو الحزب الجمهورى ؛ وكان لنكولن هو الرجل الذى اتجهت إليه أنظار أهل المدينة ليكون لسانهم فى الحزب الجديد . لهذا ولما اشتهر به بينهم من خلال أكبروها ، لم يجدوا من هو أقدر منه على مدافعة دوجلاس ؛ وهكذا التقى الرجلان من جديد فى عراك عنيف ولم يلتقيا منذ كانا نائبين فى مجلس المقاطعة

وقف دوجلاس يخطب ، وكان وهو في صغر جرمه قزم أو كالقزم ، ماردا جبارا برأسه الضخم ولسانه الذى لا يقف ، ونشاطه الذى لا يفتر ، ودهاؤه الذى لن ينخلع عنه ، ومهارته التى لا تغيب ولا تتخلف مهما تعقد الموقف ، والتوت مذاهب الكلام

ولقد كان دوجلاس فى الحق من أقوى الرجال فى عصره إن لم يكن أشد منهم جميعاً قوة ، وكان الحزب الديموقراطى يباهى به ويفخر وهو يعتقد أن لم يبق بينه وبين كرسى الرياسة إلا خطوات مع أنه لم يكن قد خطا الأربعين بعد ...

أخذ يخطب ويدافع عن رأيه فى حماسة وكياسة وإنه ليشعر أنه يطلق آخر سهم فى كنانته ! وكان محور دفاعه أنه يعمل على توطيد سلطة الشعب : وكانت العبارات معسولة والحجج تاقى فى روع السامعين أن لا سبيل إلى رفضها إذ لم يكن ثمة من سبيل إلى نقضها

وجاء دور لنكولن فى اليوم التالى ، واحتشد الناس ليروا ما عساه أن يقول فى الرد على هذا الداهية ، ووقف ان الأحراج يقابل الدهاء بالصراحة ، والمكر بالصدق ، والغرض بالإخلاص ، والمراوغة باليقين ، والباطل بالحق ، والدليل الأعرج بالمنطق الأبلج ، ومن وراء هذا كله عبقرية دونها كل تأهب بل وكل كفاية ، واستمع الناس إليه ثلاث ساعات وبعض الساعة ومنافسه يمض على نواجذه وينقم على تلك الأقدار التى ألقت به بين براثن ابن الغابة ...

بدأ خطابه بقوله أنه لا يتوخى إلا الحق ولا رائد له إلا الصدق ، فإذا أحس مستر دوجلاس خطأ فأنه ليسره أن يرده لساعته إلى الصواب . ولقد استغل دوجلاس هذا الحق وجعل يقاطعه بين حين وحين ليلويه عن قصده وليلبس عليه الأمر حتى ضاق لنكولن بتلك المقاطعة فصاح قائلاً : أيها السادة ! إنى لا أستطيع أن أنفق وقتى فى مساجلات ، وعلى ذلك فإنى آخذ على نفسى المسئولية أن أحق الحق وحدى فأعفى بذلك القاضى دوجلاس ضرورة تلك التصحيحات العنيفة » ... وأخذ بعدها يتكلم والأبصار شاخصة إليه والسكون شامل مع شدة ازدحام المكان ، والخطيب المرتجل لا يعرف اضطراباً ولا اعوجاجاً ، يهدر كالسيل لا يعترقه عائق عن وجهه ، وكأنما كان ينطق عن وحى ، فما سمعه الناس من قبل يقول مثل هذا الكلام ولا رأوه يبين مثل هذه الابانة ؛ وهو فى حركاته وإشاراته ونبرات صوته موفق توفيقاً ما شهد الناس مثله من قبل

وفرغ من خطابه وهو فى قلوب قومه أرفع قدراً وأكثر محبة عما كان ومنافسه مبتئس زائغ البصر ، موزع الفؤاد بين كلمات الاستحسان تنثر على صاحبه كما ينثر الزهر وكلمات الاستهجان تصوب إليه كما تصوب السهام .. ونظر فإذا هو بما أدلى من حجج كالعنكبوت اتخذت بيتاً ، ولم يبق فى قلوب الناس من أثر لما ردده من عبارات معسولة تدور حول سلطة الأمة ، إذ لم يترك له ابراهام دليلاً إلا سفهه وأظهر للناس ما يقوم عليه من بهرج وما يستتر وراءه من طلاء . وبهذه الخطبة فتح لنكولن فصلاً جديداً فى تاريخ حياته وقطع شوطاً كبيراً عوض عليه ما فات من ركوده ...

ومهما يكن من تفوقه ونباهة شأنه فى هذه الخطبة ، فإننا نستطيع أن نعود بالسبب إلى حد كبير — على صفاته الأساسية

التى فطر عليها ، وفى مقدمتها تبين مايعرض له والنفاذ إلى جوهره ثم الاستعانة بذلك على توضيح ما يريد أن يقول فى يسر وبساطة ومع توخى الصدق والأمانة كما يفعل حين ينهض فى المحكمة للدفاع ، هذا إلى لقانه عجيبة يميز بها فى سرعة الصواب من الخطأ والحق من الباطل ، وذهن منطق كأنه الميزان الدقيق يحس قبل أن يدرك أن هذا عليه مسحة الشك وذاك عليه نور اليقين

قال يرد على دوجلاس قوله أن من الامتهان لأهل كنساكا أن نعتبرهم غير جديرين بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، « انى أسلم أن المهاجر الى لنساس وبراسكا جدير أن يحكم نفسه ولكنى أنكر عليه الحق فى أن يحكم شخصا آخر بغير رضاء ذلك الشخص » ولقد كانت عبارته هذه كالرمية القاتلة فهي تهدم مابنى دوجلاس من أساسه ولاتدع لمبدأ سلطة الأمة الذي نادى به أى قيمة . وقال فى رده على دوجلاس إذ يدعى أن الحكومة إنما أقيمت لصالح البيض لالصالح الزنوج « انى أوافق على ذلك من حيث الواقع فى ذاته ، ولكنى أرى فى هذه الملاحظة التى ساقها القاضى دوجلاس معنى هو عندى مفتاح تلك الغلطة الكبرى (ان كان ثمة من غلطة كهذه) التى فعلها فى قرار نبراسكا ؛ انها تدل على أن القاضى لايقوم فى ذهنه مؤثرحى يريه أن الزنجى انما هو انسان وعلى ذلك فليست تقوم فى رأسه فكرة عن ضرورة وجود العنصر الخاتي عند التشريع له » ...

وبعد الخطبة وقف دوجلاس ليرد ولكن مذاهب القول التوت عليه وخانته بديهته فجعل بينه وبين الناس موعدا فى المساء لايخلفه ، وحل المساء وارتقب الناس ولكنهم لم يجدوا الخطيب ..

وبعد ذلك باثنى عشر يوما ذهب لنكولن ليخطب فى بلدة أخرى هي بيوريا ؛ ولقد تبعه دوجلاس الى هناك لعله أن يظفر هذه المرة . ولم يرتجل لنكولن كما ارتجل فى سبرنجفيلد بل قرأ من أوراق ؛ ويشهد الذين سمعوه فى المرتين أنه كان يوم ارتجل أعظم شأنا وأبعد أثرا ؛ أجل كانت خطبته الثانية أحسن بناء وأحكم نسجا وأقوى منطقا ولكنها لم تكن أكثر سحرا . . .

ولقد بدأ دوجلاس فى بيوريا كما بدأ فى سبرنجفيلد واستمر يخطب ساعات ثلاثا، ورد لنكولن فى المساء فاستغرق خطابه مثل هذا الزمن . ومما جاء فيه قوله عن قرار براسكا « ان هذا القرار يعلن الحياد ولكنه يضمر حماسة حقيقية لانتشار العبيد لايسعنى إلا أن أمقتها ، لما تنطوى عليه العبودية فى ذاتها من جور قبيح ، وأمقتها لأنها تسلب نظامنا الجمهورى الذى نسوقه للعالم مثالا من أثره الحق فى الدنيا ، وأمقتها على الأخص لأنها تدفع كثيراً من رجالنا الأخيار الى حرب صريحة ضد المبادىء الأساسية للحرية المدنية ، وهم يوجهون انتقادهم الى اعلان الاستقلال ويصرون على اعتقادهم أنه ليس ثمت من مبدأ حق تقوم عليه أعمالنا وأنه ليس إلا المصلحة الشخصية » وقال فى معرض آخر : « ان مبدأ حكم الشعب نفسه مبدأ صحيح ؛ هو مبدأ صحيح دون أدنى شك وهو الى الأبد صحيح .. ولكن إذا كان الزنجى رجلا ، ألسنا — بقدر مافى المبدأ من صحة — نرى أننا إذا حرمناه من أن يحكم نفسه إنما نحطم بذلك مبدأ سيادة الشعب ؟ حينما يحكم الرجل الأبيض نفسه يكون ذلك مبدأ سيادة الشعب ، ولكنه حينما يحكم نفسه ويحكم فى الوقت ذاته رجلا آخر فأن ذلك يكون أكثر من سيادة الشعب فهو الاستبداد ... ليس فى الناس من يتوفر لديه الخير ليحكم غيره دون رضاء ذلك الغير ، هذا هو المبدأ الأول والمرفأ الأمين للنظام الجمهورى الأميركي » .

ذلك منطق ابن الغابة وتلك آياته وهو الذى نشأ كما رأينا عصاميا فى أوسع معنى لتلك الكلمة ! انما يصد الرجل عن طبع ويترجم عن فطرة مثله فى ذلك مثل غيره من أعلام البشر وقادة القافلة فى طريق الأنسانية ...

يتبع

الخفيف

توفيق الحكيم

فى كتابه الجديد

عصفور من الشرق

أهو كتاب يدعو إلى التفاؤل أم إلى التشاؤم ؟ لا أحد يدرى . إنما الذى لاشك فيه أنك لاتنتهى من قراءته حتى تجد نفسك مضطراً إلى التفكير فى مسائل خطيرة وقد تتغير آراؤك فى أشياء كثيرة

اطلبه اليوم من المكاتب الشهيرة

ثمن النسخة ١٠ قروش مصرية